

جَبَّكَ عَامًا بَيْنَنَا لِشَهَادَتِكَ

المعهد الفرنسي للشرق الأدنى
المديرية العامة للتعاون الدولي والتنمية في وزارة الخارجية الفرنسية
المعهد الوطني للبحث العلمي - الوحدة 2895 FRE

فرع الدراسات العربية
ص ب ٣٤٤ دمشق، سورية

هاتف : ٣٣٣٠٢١٤ (٩٦٣ ١١) - فاكس : ٣٣٢٧٨٨٧ (٩٦٣ ١١)

Internet : www.ifporient.org
e-mail : diffusion@ifporient.org

© *Tous droits réservés pour tous pays*

PIFD 217
ISBN 2-35159-005-8

المعهد الفرنسي للشرق الأدنى

جبل عامل بين الشاهديتين

الحركة الفكرية في جبل عامل في قرنين
من أواسط القرن الثامن للهجرة / الرابع عشر للميلاد
حتى أواسط القرن العاشر / السادس عشر

الشيخ جعفر المهاجر

ifpo

المعهد الفرنسي للشرق الأدنى

المديرية العامة للتعاون الدولي والتنمية في وزارة الخارجية الفرنسية - المعهد الوطني للبحث العلمي - الوحدة 2895 FRE



قسم الدراسات العربية

دمشق

٢٠٠٥

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)

منذ محمد بن الحسن المشغري، الأكثر شهرة بالحر العاملي (١٠٣٣-١١٠٤ هـ / ١٦٢٣-١٦٩٢ م) ما فتى " جبل عامل " محطّ اهتمام مصنفين ينتمون إلى مختلف الأقطار والأزمان، ما بين كاتب سيرة ومؤرّخ ثقافة. والفريق الأول هو الأقدم والأكثر أصالة، صبّ اهتمامه على التعريف بأعلامه. وبذلك وضع الأساس الذي بنى عليه الفريق الثاني.

والحرّ العاملي هو رائد النمط الأول من التصنيف. وذلك في كتابه الطائر الصيت «أمل الآمل في علماء جبل عامل» الذي كان مشغولاً بوضعه عام ١٠٩٦ هـ / ١٦٨٤ م^١. ثم عقب عليه عبد الله أفندي الأصفهاني الجيراني (ت : ١١٣٠ هـ / ١٧١٧ م) بكتابه «رياض العلماء وحياض الفضلاء»، الذي كان مشغولاً بكتابته سنة ١١٠٦ هـ / ١٦٩٤ م^٢. متخذاً من «أمل الآمل» أصلاً لكتابه. مُفصلاً ما أوجزه ومستدرّكاً من سها عنه أو أغفل ذكره. ولا يفوتنا هنا أن نلاحظ أن الفاصل الزمني بين الأصل وفرعه أو شرحه هو بحدود عشر سنوات فقط. ما يدل على الموقع الممتاز الذي اكتسبه «أمل الآمل» بسرعة بين مثقفي ذلك الأوان. ثم المير محمد بن إبراهيم بن محمد بن معصوم التبريزي (ت : ١٢٠٠ هـ / ١٧٨٥ م). ثم الشيخ عبد النبي بن محمد تقي القزويني (ت : بُعيد ١٢٠٠ هـ / ١٧٨٥ م) بكتابه «تتميم أمل الآمل». ثم السيد حسن الصدر البغدادي الكاظمي

١. الحر العاملي، محمد بن الحسن المشغري : «أمل الآمل في علماء جبل عامل» تحقيق أحمد الحسيني. ط. بغداد ١٣٨٥ هـ : ١ / ١٨٩.

٢. عبد الله أفندي الأصفهاني الجيراني : «رياض العلماء وحياض الفضلاء». تحقيق أحمد الحسيني. ط. قم ١٤٠١ هـ : ٢ / ٣٠٩.

(ت: ١٣٥٤هـ / ١٩٣٥م) بكتابه «تكملة أمل الآمل». وقد أحصى آقا بزرك، محمد محسن الرازي الطهراني، بالإضافة إلى ما ذكرناه، أحد عشر كتاباً في التعليق أو التتميم أو النقد لـ «أمل الآمل»، وذلك في مختلف صفحات كتابه «مُصنّى المقال في علم الرجال»^٣. كما ذكر في كتابه «الذريعة إلى تصانيف الشيعة» أربعة مصنفات تحمل جميعها اسم «تتميم أمل الآمل»^٤ وآخر تحت اسم «تكملة أمل الآمل»^٥. وهي جميعها، عدا ما دُكر منها بالاسم، مفقودة فيما يبدو. ولن يفوتنا طبعاً أن نذكر في هذا السياق «أعيان الشيعة» للسيد محسن الأمين، مع أنه لم يأخذ «أمل الآمل» في عنوان كتابه، كما فعل السابقون، لأنه أوسع كتاب في هذا الباب. فضلاً عن أن مؤلفه لم يُخفِ تأثيره العميق بنهج ومرمى الحر العاملي^٦.

أمّا في الفريق الثاني، فإننا نجد عدّة أعمال، تتفاوت فيما بينها تفاوتاً بالغاً، سواء في قيمتها العلمية، أم في درجة عنايتها بما نَعْنى به في هذا الكتاب. لكنها جميعها لانراها تنطلق من الأسئلة التي نعتقد أنها جديرة بالطرح والمعالجة. ثم أنها لا تملك أدنى تصوّر للمشكلات الأساسية الملحة التي تفرحها خصوصية جبل عامل، بوصفه بقعة ذات امتياز، أنتجت حالة نهضوية من حيث لا يتوقّع أحد. وربما لذلك اكتفى هذا الفريق، حيث يتحدث عن تاريخ الجبل الثقافي، باقتباسات متعجّلة ممّا تركه الفريق الأول، دون أن يُشغل نفسه بأدنى جُهدٍ تركيبى^٧.

من البيّن أن تلك العناية المُركّزة والمستديمة على جبل عامل وأعلامه، من مصنفين ينتمون إلى مختلف البقاع والأزمان، يعكس إنطباعاً عاماً وقوياً عن الأهمية الخاصة لهذه البقعة في التاريخ الثقافي الذي ينتمي إليه أولئك المصنّفون. خصوصاً وأننا نعرف أن في التاريخ نفسه بقاعاً أُخريات ذات أثر هام وغير منكور، أهمها قم والري وبغداد والحلّة. ومع ذلك فإنها لم تحظْ بمثل ولا بما هو قريب من الاهتمام الذي حظي به جبل عامل.

٣. آقا بزرك، محمد محسن الرازي الطهراني: «مُصنّى المقال في علم الرجال». ط. بيروت ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م: ٧، ٤٣، ٢٤٦، ٤٨٤.

٤. آقا بزرك: «الذريعة إلى تصانيف الشيعة». ط. بيروت، دار الأضواء لات: ٣ / ٣٣٧ - ٣٨.

٥. المصدر نفسه: ٤ / ٤١١.

٦. محسن الأمين: «أعيان الشيعة» ط. بيروت ١٤٠٣هـ: ١ / ١٤.

٧. من ذلك: «جبل عامل في التاريخ» للشيخ محمد تقي الفقيه و«تاريخ جباع» لعلي مروة و«تاريخ جبل عامل» لمحمد جابر صفا و«الحركة الفكرية في جبل عامل» للدكتور محمد كاظم مكّي.

إن إنطباعاً قوياً ومستمراً كهذا كان يجب، أو على الأقل يمكن أن يكون حافزاً كافياً عند أهل البحث والنظر لطرح الأسئلة التي يحركها عند العارف بروز جبل عامل. وهي أسئلة غير سهلة بالتأكيد. لكننا نعرف أن مثلها قد عولج بالنسبة لقم، في عدد من الكتب التي تحمل اسم «تاريخ قم» يذكرها آقا بزرگ في كتابه «الذريعة»^٨. وهذه مناسبة للتنبؤ بأن الوحيد الذي طرح السؤال الأساسي عن سر بروز جبل عامل هو السيد محسن الأمين وإن بشكل عابر، وأجاب عليه إجابة مُرتجلة بأسطر معدودات^٩ ومع ذلك فإن مجرد طرح السؤال هو خطوة في الاتجاه الصحيح. وسننقد كلامه في متن الكتاب. أما الباقي فقد تعاملوا مع ما وصفوه وكأنه قدر مقدور، لا يسأل له عن علة ولا سبب.

(٢)

ماهي المشكلة التي يعالجها البحث؟

السؤال الذي نظرحه ونحاول الإجابة عليه هنا، هو: لماذا، وكيف؟
بكلام أبين:

ماهي الظروف النفسية-الاجتماعية التي جعلت جبل عامل، دون غيره، يتخذ طريقه نحو أن يصبح ظاهرة ثقافية بارزة؟
كيف نجح في أن يتحوّل من بقعة خامدة بأكثر من معنى، لا تمتاز عن غيرها من البقاع بشيء يُذكر، إلى ذي حضور ثقافي هائل، جعل منه لمدة قرنين أحد أكثر المراكز العلمية حيوية وجاذبية في العالم الإسلامي؟

إن أول الشقين من السؤال يبحث عن العامل التاريخي الذي شكّل الحافز الأساسي، التقى مع التهيّئات الكامنة في النفوس، بوصفها إحدى معطيات اللون الثقافي الخاص للناس.
أما الشق الثاني فإنه يحاول أن يصف أعمالاً إنسانية بعينها، هي الخطوات المتعاقبة التي حدثت في مسار حركة الصيرورة نحو النهضة أو في داخلها. وبذلك أنتجتها ورسمت حركتها في الزمان والمكان.

٨. ٧٩-٢٧٦/٣

٩. محسن الأمين: «خطط جبل عامل» ط. بيروت ١٤٠٣ هـ: ٧٧-٧٨.

وغني عن البيان، أن كلا الشقين ذو طابع جمعي. ذو علاقة، أولاً، بالثقافة الخاصة السائدة، وبسعيها الفطري نحو التسامي والانتشار. وذو علاقة، ثانياً، بالمعطيات والإمكانات العلمية القائمة ومقتضياتها. كما أن من الغني عن البيان، أن الحدود الزمنية للبحث، كما نقرؤها في العنوان، هي نفسها الحدود الزمنية لموضوعه، أعني النهضة. وأعتقد أن هذا التحقيب سيغدو أسوغ مع تقدم القارئ في فصول الكتاب، أي في قصة النهضة.

(٣)

في سبيل معالجة المشكلة، سيكون علينا أولاً أن نرسم حدوداً واضحة لميدان البحث في المكان وفي الزمان. ونحن في هذا أمام بحثين منفصلين، وإن ضمهما معاً عنوان الكتاب. بالنسبة للمكان "جبل عامل"، نحن أمام مشكلة ذات وجهين. فقد رأينا من سبقونا إلى الاهتمام ببعض ما نهتم به في هذا البحث قد اختلفوا اختلافاً بيناً في مفهوم وحدود هذا الـ "جبل عامل". وقد عقد السيد محسن الأمين فصلاً كاملاً في كتابه «خطط جبل عامل»، استعرض فيه الاختلاف حول ما سماه «تحديد جبل عامل»^١. وليس سبب الخلاف والاختلاف، فيما نُخَمِّن، إلا أنه لم يكن في يوم من الأيام كياناً ذا حدود معلومة متسالم عليها، على الباحث اليوم أن يكتشفها. ثم أننا رأينا رائد التصنيف على التعريف بأعلامه، أعني الحر العاملي، وكل من قفَى على أثره واتبع خطاه، وما أكثرهم، قد اخترقوا أبعد ما وصل إليه الكلام على حدوده المزعومة، نافذين إلى بلدان ليست منه بالتأكيد. وذلك بأن نسبوا إليه أعلاماً هم في الحقيقة من أبناء هاتيك البلدان. وعليه فإن علينا أن نبحت عن علّة هذا الاختراق وذلك جرياً على قاعدة أصالة صحة النص، مالم يُقْم دليل على العكس. وإلا فسيكون علينا أن نقبل أن هذا التسالم الواسع ما هو إلا من باب التكاذب العلني. وذلك فرض غير مقبول، خصوصاً وأنه صدر عن نخبة من العارفين.

في سبيل معالجة هذه المشكلة سنعقد فصلاً يحمل عنوان «جبل عامل، عاملي، الاسم والمسمى». وفيه نتبع تطور المسمى، أي جبل عامل والاسم "عاملي" خلال القرون. وهو بحث غير مسبوق، ومدخل ضروري إلى ما نسعى إليه. بدونه سيكون بحثنا غير ذي موضوع معلوم لدى الباحث والقارئ على حدّ سواء.

١٠. «خطط جبل عامل»: ٦١-٦٧.

بُعيتنا هنا أن نصِف كيف رسمت النهضة موضوعها، بانتشارها الفعلي، بحيث غدا أمراً واقعاً مترابطاً لا يمكن تفكيكه، خضوعاً لاعتبارات جغرافية أو تاريخية. وعلى صعيد المنهج، تسويغ دراستها أعني النهضة، بوصفها كلاً متكاملًا تحت الاسم الذي اختارته لنفسها دون سواه. مطلب كهذا يستحق أن يُعقد له فصل برأسه.

أما بالنسبة للزمان «بين الشهيدين» فنقول:

المعني بـ «الشهيدين»: محمد بن مكّي الجزيني، الشهير بلقب الشهيد الأول (ق: ٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م) وزين الدين بن علي الجُبّاعي، الشهير بلقب الشهيد الثاني (ق: ٩٦٥هـ/ ١٥٥٧م). أثرنا تحديد زمان البحث بهما وبحياتهما لما بينهما وبين النهضة في جبل عامل من علاقة صميمة. الأول بوصفه بطل النهضة، الذي أدّت أعماله إلى التأسيس لها وانبعثها. والثاني بوصفه أبرز علماء جبل عامل بل الشام كله، في زمانه، وشيخ جُبّاع، آخر مركز علمي في جبل عامل. والذي أدّى قتله على يد العثمانيين إلى انفراط نظامها. وكان قتله بمثابة النذير لعلماء جبل عامل، وعامتهم من تلاميذ الشهيد، فخرجوا هاربين بالعشرات باتجاه إيران والعراق والحجاز والهند. وانطفأت النهضة، لتنبعث في غير مكان، حيث استقر أولئك المهاجرون.

هكذا، فنحن حين نحدّد زمان النهضة بحياة الشهيدين فإننا نضع لها حدّين أبعد كثيراً ممّا تعطيه السنوات والأيام. لأنه يتصل ويُشير إلى ما بين هذين العلمين وبين النهضة انبعثاً وخموداً من علاقة.

ثم أن علينا إن نضع البحث على قاعدة موضوعية. ضرورة أنه على صعيد السلوك البشري، كما على صعيد عمل الطبيعة، ما من شيء يحدث دون مقدماته وشروطه. وإن كنا نسُمّيها عند الإنسان حوافز، إلماًحاً إلى ما بين الاثني من فارق في الدرجة.

من المعلوم أن الحوافز السلوكية ذات الصفة الجمعية تبدأ ففتها في تكوين الجماعة، في قوامها بمختلف عناصره، وفي تاريخها الخاص. وما دام السؤال الأساسي الذي يطرحه البحث يدور، في جزء منه على الأقل، على الحوافز باتجاه النهضة، فإن الجواب عليه لا بد أن يمرّ في الجماعة نفسها، أعني في تكوينها، قوامها، وفي تاريخها الخاص. وهما وجهان للعملة نفسها.

في سبيل الوقوف على هذا المزاج النفسي - الاجتماعي، أو الإنسان والحدث في لحظة تفاعلها، سنعقد الفصل الثاني، الذي يحمل عنوان «جبل عامل بين التشكّل والاحتلال». وفيه

إلماح غير خفي إلى ما بين تشكّله سكانياً واحتلاله من قبل الصليبيين من علاقة متينة . والحقيقة أن ما عبّرنا عنه أعلاه بـ " القاعدة الموضوعية " ، لا يقتصر على تفسير التشكّل السكاني وجوهره الثقافي ، بل سيقف بالقارئ على أول محرّكات النهضة . حيث يبيّن التحدي الحضاري بوصفه أثراً من آثار الاستلاب الكامل لأهليه على يد المحتلين .

في الفصل الثالث « رهص النهضة وروّادها » سنبداً الدخول في عالمها ، وليس فيها . وذلك بعد تمهيد نراجع فيه تصوراً نراه غير دقيق لتاريخية النهضة . أمّلته ضرورة احترام كافة المساهمات السابقة في حلّ أي من مشكلات البحث التفصيلية .

في هذا الفصل سنعرّف بسبعة أعلام طليعيين ، بوصفهم التعبير الوحيد الذي وصل إلينا عن المسار العام الذي أدّى في النهاية إلى النهضة . هنا سنقع بين أولئك الروّاد على أول شاعر من جبل عامل نعرفه . ووصل إلينا شيء من شعره . وهذا أيضاً سبق آخر لبحثنا . وقد جمعنا كل ما وصلت إليه اليد من شعره . وأثبتنا ما يتعلّق منه بسيرة الشاعر في متن الكتاب . أمّا الباقي فيجده القارئ في ملحق خاص .

مطلبنا في هذا الفصل هو أن نبني تصوراً للمقدمات العملية للنهضة . ضرورة أن أمراً كبيراً بقدرها لا يمكن أن يكون قد انبجس هكذا من غير أساس مناسب . وسنختمه بقسم نصف فيه حركة المسار . نستخلصه ممّا تعطينا إياه سير أولئك الذين ارتادوا لها الدرب .

سندخل على النهضة من بابها . وليس هو إلا بطلها محمد بن مكي الجزيني . الذي سنخصص له الفصل الرابع « بطل النهضة محمد بن مكي الجزيني » . وما هذا التخصيص مجرد فعل وفاء أو عمل تنويهي . بل الحقيقة ، التي سنسعى لأن يلمسها القارئ ، أن مشكلات سيرة البطل تتداخل إلى حدّ بعيد مع دراسة آليات انبعاث النهضة نفسها . ومن هنا رأينا أن دراسة سيرته مدخل وباب لدراسة النهضة نفسها . نقول هذا على سبيل تسويغ تخصيص فصل برأسه لسيرته .

أمّا النهضة نفسها ، وهي موضوع الفصل الأخير وذروة البحث ، فإننا سندرسها بدراسة مراكزها . فنقصّ ما أمكن قصة انبعاثها وأبطاله وأعمالهم . وقد استقرّينا على هذا المنهج بعد عدّة تجارب . حيث وجدنا أنه هو الأصلح . لأنه الوحيد الذي بد لنا أنه يتيح النفاذ إلى الحركة الداخلية للنهضة وهي عالقة في ميدانها . ونعني بالمراكز ، القرية أو البلدة التي قامت فيها حركة علمية ، من دراسة ودرس وتصنيف . فأنتجت مثقفين وفكراً . وقد خصصنا كل مركز بقسم مستقل . ذيلناه ،

حيث يلزم، بمُخَطَّط يلخص الحركة العلميَّة فيه من مبتدأها إلى منتهاها. بحيث يستطيع القارئ أن يلمَّ بها بنظرة. ثم ختام الفصل ملاحظات تركيبية عامة على الحركة بمجملها. رمينا بها إلى ملء ثغرة في المنهج الذي اتبعناه في هذا الفصل. تأتت من أنه جزءاً قصة النهضة إلى عدة قصص، تبعاً لمراكزها. فجاء هذا القسم الأخير ليجمع عناصرها.

(٤)

بالنسبة إلى مصادر البحث. فإن علينا أن نذكر اعتمادنا الكبير على نصوص الإجازات، التي صدرت عن أو مُنحت لأبناء جبل عامل في فترة البحث أو فيما يمكن أن يكون ذا فائدة لدراستها. وهي وثائق ممتازة لغرضنا. لأنها تحتوي على الاسم الدقيق للمُجاز والمُجيز. وعلى تاريخ ومكان الإجازة غالباً. فضلاً عن أسماء الكتب والموضوعات التي كانت موضوعها أو ذُكرت فيها لسبب أو غيره. إنها وثائق ممتازة جداً. فضلاً عن أنها لم تُستخدم فيما سبق في بحث تركيبية. وإن استفاد منها أحياناً بعض كتَّاب السيرة. وعليه يمكن اعتبارها من هذه الوجهة مصادر بكر. وقد أخذنا أغلبها عن المجلد الخامس والعشرين من «بحار الأنوار»، بحسب التجزئة الأصلية للكتاب، لمحمد باقر المجلسي. الذي جمع فيه كل ما وصل إلى يده من نصوص هذه الإجازات. وبذلك حفظها من الضياع، ويسر للباحثين ذخيرة لا تقدر بثمن.

إن الأهمية الفائقة التي اكتسبتها نصوص الإجازات في بحثنا، جزءاً وفاقاً لغناها بالمعلومات الدقيقة، قد غطت على مصدر آخر، اعتاد أهل البحث على اعتباره بحق المصدر الأول في كل ما له علاقة بالتاريخ الثقافي لجبل عامل. أعني «أمل الآمل في علماء جبل عامل» الذي ذكرناه فيما فات. وهو أول كتاب صنَّفه صاحبه تعبيراً عن انشغال قلبه بجبل عامل. وقد استفدنا منه كثيراً في غير دراسة، كما استفاد منه الكثيرون من قبلنا. لكن بحثنا هذا كان امتحاناً عسيراً له. وربما أكثر مما يطيقه كتاب مثله فقير بالتفصيلات، التي يطلبها بحث مُركَّز على قضية بعينها. يعمل على وصف حركة وهي عالقة. ويقتضي بالتالي أسماء وتاريخات وأعمالاً أدق وأغنى ما يكون. لذلك فإننا سنرى هذا الكتاب الثمين ينحدر هنا كمصدر إلى الدرجة الثانية من حيث الأهمية. وهو الذي اعتاد أن يحتل مكان الصدارة في أي بحث عن جبل عامل حتى زمانه.

«رياض العلماء وحياض الفضلاء»، وقد ذكرناه أيضاً فيما فات، هو مصدرنا الثالث من حيث الأهمية. وقد صنّفه صاحبه متأثراً بـ «أمل الآمل» فجاء بأضعاف أصله. وهذه الملاحظة ليست ذات معنى كميّ فحسب. فالحقيقة أن الفرع يمتاز على أصله بالغنى والدقّة والأسناد. وهو ثمرة تنقيب مصنّفه طويلاً في مئات الوثائق. وأيضاً ثمرة خبرته الواسعة بالرجال المعارف. الأمر الذي أهّله لمحاكمة مواطن النقص والخلل في «أمل الآمل». فجاءت محاكماته وجبهة غالباً إن لم يكن دائماً.

رابع مصدرنا الأساسيّة «أعيان الشيعة» للسيد محسن الأمين. وهو كتاب فريد في بابه، على عيوب منهجيّة جمّة.

عمل السيد الأمين في كتابه الضخم على تقديم سيرة على أكثر ما يمكن من التفصيل، لكل من يصدق عليه عنده أنه من «أعيان الشيعة». وفي هذا السبيل استفرغ كل ما وصلت إليه يده من المكتبات العامّة والخاصّة في لبنان وسورية والعراق وإيران. باحثاً منقّباً دونما كلال. ومن هنا فإدراك كتابه. لكنّه، من الجهة الأخرى، لم نره ينطلق من تعريف واضح لمن هم عنده من «أعيان الشيعة». كما أنه لم يُسند مادته إسناداً يمكن معه للباحث أن يرجعها إلى أصولها. هوذا كتاب رأس ماله الثقة الشخصية بمصنّفه. وهي ثقة في محلّها دون ريب. ومع ذلك فإن «أعيان الشيعة» يبقى مرجعاً لاغنى عنه، إلى أن يُقيض للمشروع الرائد من يُجدّده، بحيث يأتي أكثر تماسكاً وأشدّ صلابةً.

خامس مصدرنا الأساسيّة «روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات» لمحمد باقر الخوانساري (ت: ١٣١٣ هـ / ١٨٩٥ م) وهو كتاب في التراجم والسير العامّة. لكن قيمته الخاصة تكمن في الروح النقديّة العالية التي تمتّع بها مصنّفه. بحيث جاء عمله مُشعباً بتحقيقات وملاحظات ومراجعات نقديّة أصيلة لكل من سبقوه.

(٥)

حرصنا عند ذكر التاريخ بالسنة على مزوجة الميلادي بالهجري. وذلك تيسيراً على القراء الذين يألّفون، أو هم أكثر أنساً بالتقويم الميلادي. وقد اعتمدنا في ذلك على الجدول المُقارن الذي ذيل به المُستعرب زامبور كتابه «معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي». من

الضروري هنا أن نقول ، إن التاريخ الميلادي مُستنبط من التوفيق مع الهجري . ولذلك فإنه يحتمل هامش خطأ زائد أو ناقص بمقدار سنة .

(٦)

الشكر لله سبحانه ، الذي لا ينبغي أن يسبق شكره شكر أحد من عباده ، على ما وفق وأعان في هذا البحث العسر .

ثم الشكر للمعهد الفرنسي لدراسات الشرق الأوسط على نشره الكتاب . وسأتذكر دائماً بالاعتزاز والتقدير الموافقة الفورية على نشره بعد عرضه على الصديق العزيز الأستاذ الدكتور فلوريال سناغوستان . ولن يفوتني أن أثني على جهد الأنسة نديمة كريميد في إخراج الكتاب .

والحمد لله .

معاني الرموز الواردة في الكتاب

هـ: هجري

هـ. ش: هجري شمسي

م: ميلادي

ح: حي

ت: توفي

و: وُكِد

ق: قُتِل

هـ: هامش

لات: لا تاريخ

حو: حوالي

ط: طبع

ص: صفحة

ج: جزء

الفصل الأول

" جبل عامل " " عاملي " الاسم والمُسمّى

- ١- الموقع والنهر، جغرافيا وتاريخ .
- ٢- جبل عامل = الجليل .
- ٣- الممالك، حدود إدارية سُلووية .
- ٤- جبل عامل الثقافي، حدود جديدة، الكيان .
- ٥- مفهوم " عاملي " عند مؤلف «أمل الآمل» .
- ٦- الشهيد الثاني ودوره في إحياء المفهوم الجديد .
- ٧- خلاصة الفصل .

" جبل عامل " " عاملي "

الاسم والمسمى

١- الموقع والنهر، جغرافيا وتاريخ

إذا غادرنا مدينة صيدا، سالكين الطريق الساحلي باتجاه الجنوب، نرى على طول الطريق مجموعة من الهضاب المترابطة. تبدأ في الارتفاع تدريجاً. تاركة هنا وهناك، بموازة شاطئ البحر، فسحة متفاوتة السعة تُشكّل مزروعات خصيبة. تتسع حيث مدينتنا صيدا و صور، لتكوّن سهلين حقيقيين. أكبرهما السهل المجاور لصور، المعروف باسم سهل القاسمية.

أما الهضاب فإنها ترتفع تدريجياً إلى أن تتصل بجبل الجرمق المطلّ على مدينة صنفد في فلسطين. بينما تنحدر السفوح الشرقية انحداراً عنيفاً نحو منخفض الحولة، مطلة على مرتفعات الجولان. ونهر الليطاني يُجزئ هاتيك الهضاب إلى قسمين. يُطلق الجغرافيون اليوم على القسم الجنوبي منها اسم جبل عامل. أما من وجهة نظر تضاريسية، فإن جبل عامل مُتمم لجبال الجليل الفلسطينية.

إذا نحن صعدنا شرقاً مع مجرى أهم أنهار المنطقة، أعني نهر الليطاني، الذي يكتسب هنا اسماً محلياً هو نهر القاسمية، نجد أن النهر قد حفر لنفسه، خلال الأزمان المتطاولة، مجرى عميقاً جداً في الهضاب العالية شرقي مدينة النبطية. وذلك ما جعله ضئيل النفع للأرض التي يمر فيها. بسبب الاختلاف الكبير بين مستوى الأرض المجاورة وبين مجرى النهر العميق. لكن ذلك، من الجهة الأخرى، هو الذي جعل بحثنا هذا ممكناً، على الأقل بشكله الحالي. فالنهر، وهو يجري دائماً خلال العصور، قد كسر الحدود الطبيعية بين الهضاب العالية المنحدرة نحو الساحل غرباً، وبين الانهدام العميق الذي يكوّن سهل البقاع شرقاً. ففصل سلسلتي جبال لبنان الشرقية والغربية حيث تلتقيان عند رأسيهما الغربيين. وهكذا كوّن ممراً أتاح للسكان أن يتواصلوا في الاتجاهين. ولولا ذلك لكان اتصال جبل عامل بسهل البقاع عسيراً جداً. ولأدّى حتماً إلى تغيير الخريطة الثقافية للمنطقة. وإذا كان من حقنا أن نخضع المقادير لما تتصوره من احتمالات، لقلنا إنه لولا تأثير

الليطاني على صورة الأرض من حوله لما اتخذت قصتنا الحُبكة نفسها، ولتغيّرت دون ريب أحداث وأسماء رجال وبلدان. هذا إن كان ثمة قصة تُروى على الإطلاق. فكأن النهر الذي حرم أرض جبل عامل ما تمنحه الأنهار للأرضين، قد منحها باليد الأخرى هبة معنويّة من غير احتساب. هكذا، كأنما كُتب على هذا الجبل أن يكون امتيازه المعنوي كفاء حرمانه من البحبوحة والعيش الرغيد. وهذه ملاحظة ما تزال صحيحة حتى اليوم.

وما دام الكلام قد انعطف نحو أيادي هذا النهر على ميدان بحثنا، فإن من المناسب أن نقول، إن المركزين العلميين البقاعيين، أعني مشغرة و الكرك، قد قاما على حرمة، أي على السفوح المُشرّفة على الأرض التي يروها. ومن المعلوم أن أماكن السكن إنما يجري تمصيرها من قِبَل الناس حيث يطيب العيش ويسر. أي حيث يتوفّر عنصر الأمن والمياه. السفوح تقدّم الأمن، في حين تقدّم مصادر المياه العنصر الآخر. وهكذا يبدو لنا أن هذين المركزين، من وجهة نظر سُكّانيّة، من صنيعه هذا النهر المبارك وغرسه.

٢ - جبل عامل (الجليل)

من المقطوع به أن ذلك التحديد لجبل عامل، كما قرأناه عند الجغرافيين المحدثين، لم يكن دائماً كذلك. بل كان أكبر من ذلك بكثير. بدليل أن ياقوت، المتوفى عام ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م، يقول في «معجم البلدان» في صفد إنها «مدينة في جبل عامل»^{١١}. ومعلوم أن صفد في الجليل الأعلى، على ثلاثين ميلاً إلى الشرق من عكا. وهو في مؤدّى كلامه هذا يؤكد ما قاله سلفه مؤسس علم البلدان أحمد بن واضح اليعقوبي، المتوفى بعيد عام ٢٩٢ هـ / ٩٠٤ م، في كتابه «البلدان» إذ قال: «وجبل الجليل وأهله قوم من عامل»^{١٢}. التي يفهم منها أن جبل عامل هو نفسه جبل الجليل، منسوباً إلى القبيلة اليمانيّة التي نزلته. ونجد عبارة مماثلة في قوة دلالتها، بالإضافة إلى أنها أكثر تحديداً، لدى النسابة اليماني الحسن بن أحمد الهمداني، الذي كان حياً عام ٣٦٠ هـ / ٩٧٠ م، في كتابه «الإكليل»، تقول: «وأما عامل فهي في جبلها مُشرّفة على طبريّة إلى نحو البحر»^{١٣}. وميزة

١١. ياقوت بن عبد الله الحموي: «معجم البلدان» ط. بيروت دار صادر لات: ٢ / ٤١٢.

١٢. اليعقوبي، أحمد بن واضح: «البلدان» ط. النجف ١٣٧٧ هـ / ٨٣.

١٣. الحسن بن أحمد الهمداني: «الإكليل» ط. القاهرة ١٣٧٧ هـ: ٣ / ٨٧.

كلام الهمداني، بالقياس إلى سابقه، أنه يُطلق الكلام إطلاقاً المسلّمات المشهورة، " جبلها"، أي عاملة، ثم يتبع ذلك بتحديد الجبل من السفوح المُشرفة على وادي الأردن جنوباً، إلى "نحو البحر" غرباً، أي ما يشمل جبل الجليل كلّهُ.

فهذه ثلاث شهادات على أن جبل عامل كان هو نفسه الجليل تبدل اسمُه بعد أن نزلته قبيلة عاملة اليمانية. وظلَّ يحمل الاسم حتى النصف الأول من القرن السابع للهجرة / الثالث عشر للميلاد. وهي شهادات صدرت عن ثلاثة شهداء أثبات. أولهم اليعقوبي، ذلك البلداني المؤسس الثبّت، الذي جال الأمصار مُتحريراً مُسائلاً. ولم يُثبت في كتابه الثمين إلا ما صحَّ عنده (اقرأ مقدمة كتابه). وثانيهم الهمداني، شيخ نسابة اليمن ومعاريفها ومحافدها ومنازلها، بشهادة نسابة هذا العصر السيد شهاب الدين المرعشي النجفي، في المقدمة التي وضعها لكتاب «لباب الأنساب» لابن فُندق^{١٤}. أمّا ثالثهم، ياقوت، فهو ذلك البلداني الكبير، الذي مخض في كتابه الضخم ما سبقه إليه أسلافه، من مُصنّفي كُتب المسالك والممالك، فجاء «معجم البلدان» زبدتها كلها.

إن معرفتنا الكافية بمنهج كلٍّ من اليعقوبي والهمداني تسمح لنا بالقول، إنه على الرغم من التشابه الكبير بين عبارتيهما، فإن كلاً منهما نظر إلى موضوع كلامه من زاوية تختلف عن الآخر. اليعقوبي جغرافي يولي معالم الأرض، من مدُن وجبال وأنهار ومسالك، وقسمتها إدارياً وسياسياً، اهتمامه الأول. ومن هنا رأينا ينطلق من قسمة الشام إلى أجناد، وكلٍّ منها إلى كُور. وكلامه على الجليل يأتي في سياق إحصاء كُور دمشق. أمّا الهمداني النسابة، فإنه ينطلق من ذكر مَنْ تشأم من العرب، وعلى رأسهم طبعاً قومه اليمانية. ليصل من هذا الطريق إلى عاملة وجبلها. إذن. فهناك عند الاثنين اعتبار تضاريسي، وقد قلنا فيما فات أن جبل عامل بهذا الاعتبار مُتمم لجبال الجليل. ثم اعتبار إداري عند اليعقوبي وآخر سكاني عند الهمداني. المُهم بالنسبة لبحثنا أنهما كليهما وصلا إلى النتيجة نفسها. وهذا التقاطع، مع اختلاف الطُرق، من أقوى الأدلّة. ومن هنا رأينا ياقوت، وهو من بلداني القرن السابع للهجرة / الثالث عشر للميلاد، يقول، إن صفد هي مدينة في جبال عاملة. وهو في قوله هذا يتبع سبيل القدماء. فإذا فهمنا من ذلك أن كلامه يعكس ما كان سارياً حتى زمانه، كان ذلك دليلاً حسناً على أن إطلاق اسم جبل عامل على جبال الجليل

١٤. ابن فندق، علي بن زيد البيهقي: «لباب الأنساب والألقاب والأعقاب» تحقيق مهدي الرجائي.

كلها ظل ساريًا حتى القرن السابع / الثالث عشر . وهذه النتيجة يؤيدها الاعتبار . فمن الصعب أن نقبل أن بلدانياً بحجم مؤلف «معجم البلدان» تفوته مرافقة تطور اسم منطقة وسطية ذات أهمية خاصة . فضلاً عن أننا نعرف أن أسماء البقاع هي من أكثر التسميات ثباتاً . ليست تحول ، إن حالت ، إلا لسبب قوي وبعد زمن طويل .

٣ - الممالك ، حدود إدارية سلطوية

لم يمرّ قرن منذ ياقوت حتى رأينا ما اسمه جبل عامل قد انكمش وتقلص حتى غدا اصغر بكثير مما يراه الجغرافيون اليوم . وآية ذلك أن البلداني شيخ الربوة محمد بن أبي طالب الأنصاري ، المتوفى عام ٧٢٧هـ / ١٣٢٦ م ، يميز الاسم والمسمى " جبل عاملة " عن كل من جبل جزيين و مرج عيون و جبل جبع و جبل تبنين وأرض الجرمق^{١٥} . وكل هاتيك البقاع ، مضافاً إليها غيرها ، كانت من قبل عند ياقوت وغير ياقوت " جبل عاملة " كما عرفنا . وذلك تطور لا بدّ أنه يضمّر مغزى . وجدير بنا ، ونحن نبحث عن سر هذا الانكماش المحزن ، أن نلاحظ أن شيخ الربوة انساق إلى تعداد هاتيك المواقع بوصفها «أعمالاً تابعة لمملكة صنف ومضافاتها»^{١٦} . ولم يكن معنياً على الإطلاق بالجغرافيا والتاريخ والسكان ، كما كان أولئك الثلاثة يفعلون . ونراه يُصرّح في أول هذا الفصل من كتابه بأن هذه القسمة الإدارية قد ابتدعت في أيام " الدولة التركية " ^{١٧} . يعني دولة الممالك البحرية الشركس . التي بدأ حكمها عام ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م . وهذه القسمة ألغت سابققتها التاريخية إلى أجناد ستة . بعد أن ظلت معمولاً بها منذ عام سبعين ومائة / ٧٨٦ م . إذن ، فمن اليسير أن نستنتج من كلام شيخ الربوة ، أن انكماش جبل عامل قد حصل في سياق التقسيمات الإدارية التي اعتمدها الممالك بعد تصفية الاحتلال الصليبي ، الذي ران عليها ما يقرب من قرنين من الزمان . فجعلوها " أعمالاً " ، مركزها إما معلّم جغرافي بارز ، او حصن ذو أهمية عسكرية . كما يمكن أن نستنتج من ذلك أيضاً ، أن تلك التقسيمات قد حصلت في زمن غير بعيد عن تاريخ صدور النص .

١٥ . شيخ الربوة : «ثخبة الدهر في عجائب البر والبحر» ط . بيروت ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م / ٢٧٩ .

١٦ . نفسه / ٢٧٨ .

١٧ . أيضاً / ٢٥٨ - ٥٩ .

لسنا ندري على نحو التحقيق هل كانت السلطة المملوكية، فيما حفظت له اسمه التاريخي، معتبرة وضعا سكانيا مثلاً، أم مؤسسة لوضع جديد بمجرد إرادة سلطوية؟ إذ سلخت الأطراف عن جبل عامل من جميع الجهات: جُبُع وجزين وتيرون وتبين و مرج عيون و الجرمق حيث صُفد. وما أبت منه إلا على القلب. ونحن نميل ميلاً إلى القول الثاني، دون دليل قاطع. سوى أننا نعرف الطريقة التي كان أولئك الحاكمون يسوسون بها البلاد والعباد. وسيأتيك في الفصل الثاني، إذ نتحدث في الصورة السكانية وتطورها في الجبل، ما قد يساعد على تكوين رأي على هذه النقطة ذات الأهمية.

ثم أننا ما ندري أيضاً ماذا كان وقع ذلك التدبير على الناس. وإلى أي حد ساهم في استقرار مُسمى "جبل عامل" على ما استقر عليه. مما نعرفه وإن كنا نختلف على حدوده وأطرافه، اختلافاً سنشير إليه فيما يلي. لكننا ما نشك أن تدبيراً سلطوياً كهذا لم يكن على علاقة بوجودان الناس. وأنهم لم يدركوا منه سوى ما لامسهم واتصل بأسباب وطرائق عيشهم، لأن بغية السلطة منه لم تكن غير جباية الضرائب على الأرضين. والتطور التالي في الاسم والمسمى قد يصلح دليلاً على ذلك.

٤- "جبل عامل" الثقافي. مفهوم جديد: الكيان

التطور التالي والأكثر أهمية في الاسم، وضمناً في المسمى، حصل بطريقة غير مباشرة كواحد من معطيات النهضة، التي كان مركزها الجبل ابتداءً من النصف الثاني من القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد.

حق أن التطور المعطى الذي نشير إليه، لم يبدأ بالظهور، بشكل يمكن رصده، إلا في الوقت الذي كانت فيه شمس النهضة قد أذنت بالأفول، كما سنعرف بعد قليل. أي بعد ما يقل قليلاً عن قرنين من بدايتها. ولم يتكامل ظهوره إلا بعيداً عن الوطن، وبعد قرنين آخرين، كما سنعرف أيضاً بعد قليل. لكن هذه الصيرورة ما كان لها أن تتنام وتتكامل دون الشرط الملائم الذي وقرته النهضة، أعني الكيانية الثقافية، وهي المعطى الأول للنهضة. التي منحت جبل عامل مفهوماً جديداً وحدوداً جديدة وأيضاً مسمىً جديداً، بالقياس إلى كل ما كان، مما وصفناه آنفاً. فكأننا، بل نحن بالفعل، أمام كيان جديد. حدوده ليست في الجغرافيا والناس، مثلما كان في أول أطواره. كما أنها ليست

في السياسة، مثلما كان في ثانيهما. بل هو في الفكر وفي الثقافة. ولعلّه لو يُقَصَّم بالهجرة الواسعة إلى إيران لرأيناه أيضاً في الحضارة.

التعبير الأكثر وضوحاً عن هذا التطور، وأيضاً عن النهضة التي أنجبتّه، نجده في كتاب «أمل الآمل في علماء جبل عامل» لمحمد بن الحسن الحر المشغري (١٠٣٣-١١٠٤هـ/١٦٢٣-١٦٩٢م). الذي أرخ فيه لأبطال النهضة، صانعيها وحملتها ونقلتها. والحقيقة أن أهم ما في الكتاب، بالنسبة لما نعالجه الآن، هو اسمه، وخصوصاً قوله: «في علماء جبل عامل». باعتبار الاسم مُشيراً إلى منهج، وهذا بدوره يرجع إلى مفهوم لما هو هذا الـ "جبل عامل" الذي يتحدث عنه.

لسنا نجد في «أمل الآمل» معالجة مباشرة وصريحة لكيان اسمه جبل عامل، مثل تلك التي رصدناها لدى السيد محسن الأمين في كتابه «خطط جبل عامل». الذي حاول فيه، دون كبير جدوى، أن يرسم له حدوداً واضحة، استناداً لأقوال مؤرخين وغير مؤرخين، واستناداً أيضاً إلى نقولات شفوية. دون أن يلتفت إلى أن جبل عامل الذي يتحدث عنه لم يكن في يوم من الأيام كياناً سياسياً ذا حدود مُتسالم عليها. كما أنه لم يكن حالة مستمرة. بل أخذ اسمه في البداية من حالة سكانية قبلية، ثم اختزل بقرار سلطوي، ثم استقر على قاعدة من حالة ثقافية. هي هذه التي تمهد للخوض فيها وفي ملايسات توليدها لهذا المُسمّى الثالث. نعتقد أن الحر العاملي أقرب إلى الحقيقة وأصدق قليلاً من كل الذين حاولوا أن يتحدثوا عن كيان ذي حدود جغرافية اسمه جبل عامل. فلقد رأيناه لا يكثرث بالأمر لا من قريب ولا من بعيد. ولم يخصّه بعنوان في المقدمة المطوكة التي وضعها لكتابه، والتي عالج فيها اثنتي عشرة مشكلة مما يتصل بموضوع كتابه. بل نفذ مباشرة إلى فكرته وكأنها مُسلمة لا ريب فيها ولا جدال عليها. بأن نسق في كتابه فقهاء كرك نوح ومشغرة إلى جنب فقهاء جزين و جباج و ميس الجبل و عيناثا على حدّ سواء. مُدبلاً اسم كل من ترجم لهم بلقب "العاملي". بل إنه هو نفسه، وهو المشغري، منح نفسه اللقب عينه وتقبل الناس ذلك منه في حياته وبعد مماته دون أدنى توقّف. واسم «الحر العاملي» علم عليه خاصة. ينصرف إليه دون سواه عند كل عارف بالمكتبة والثقافة الشيعية. على كثرة من خرج من عائلته من الفقهاء والمُحدثين المعروفين.

٥- مفهوم "عاملي" عند مؤلف «أمل الأمل»

الحقيقة التي بوسع الباحث المتتبع أن يكتشفها، أن الحر العاملي كان في نهجه ذاك متبعا وليس مبتدعا. وهذا أمر لم يكتشفه أحد من ناقديه الكثر، ممن ذكرناهم في المقدمة. ولذلك فإننا سنفصل الكلام فيه تفصيلا.

سنعتمد في تحقيق الدعوى الإجازات الصادرة عن أو الممنوحة لمن يشملهم موضوع البحث. لأن هاتيك الإجازات تحتوي على أكبر حشد من الأسماء الكاملة، بالصيغة التي كانت متداولة وشائعة في زمان أصحابها. كتبها من هم أعرف ما يكون بها. إما لأنها أسماؤهم هم أنفسهم، بالنسبة للمُجيز. وإما لأنها أسماء من يعرفونهم معرفة جيدة لاريب فيها، وعلى كل حال فإنها تُكتب بحضور أصحابها، بالنسبة للمستجيز / المُجاز له.

والإجازة، بالنسبة لمن لم يألفوا اللغة الفنية عند أهل الحديث، هي: «الكلام الصادر عن المُجيز، المُشتمل على إنشائه الإذن برواية الحديث عنه. بعد إخباره إجمالا بمراتبه ومشايخه والكتب والمصنّفات التي قرأها أو التي صدر الإذن عن المُجيز بروايتها»^{١٨}. وجدير بالذكر أن الإجازات تكون غالباً مُحلاة بذكر المكان والتاريخ الدقيق الذي صدرت فيه. فهي لكل هذه الاعتبارات وثائق نموذجية بالنسبة لما نعالجه الآن.

ولقد استقرنا عشرات الإجازات المجموعة في المجلد الخامس والعشرين من «بحار الأنوار. الأجزاء: ١٠٤-١٠٩ من التقسيم الأخير للكتاب». تمتد تواريخها على مدى قرنين من الزمان على وجه التقريب. صدرت عن أو مُنحت لفقهاء عاملين، في الوطن أو في المهجر. وبالنتيجة خرجنا بعدة ملاحظات بيّنة الدلالة.

الملاحظة الأولى: خلال فترة النهضة، وبالتحديد حتى أواخر النصف الأول من القرن العاشر

للهجرة / السادس عشر للميلاد، نلاحظ الغياب الكامل للقب "عاملي" في أسماء الأعلام الذين من جبل عامل. بحيث يمكننا القول باطمئنان كافٍ أن اللقب لم يكن قد نشأ بعد نسبةً إلى الجبل. وكان الفقهاء الذين رصدنا أسماءهم في نصوص الإجازات، وهم ممثلو الثقافة السائدة، يؤثرون الانتساب إلى بلداتهم وقراهم. وسنذكر فيما يلي أعرف هؤلاء بأسمائهم كما وردت:

١٨. محمد باقر المجلسي: «بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار» ط. بيروت ١٤٠٣ هـ/

• محمد بن مكّي **الجزيني** الأكثر شهرة بلقب " الشهيد الأول " وهو مؤسس النهضة . (ق : ٧٨٦ هـ / ١٣٨٤ م) ^{١٩} .

• ابن عمّه محمد بن محمد بن المؤذن **الجزيني** ^{٢٠} .

• علي بن الحسن بن محمد بن صالح **اللويزاني** نسبةً إلى قرية اللويزة ^{٢١} .

• ابنه محمد بن علي **الجبيعي** (ت : ٨٧٣ هـ / ١٤٧١ م) ^{٢٢} .

• علي بن يونس **النباطي** ، نسبةً إلى النبطية (ت : ٨٧٧ هـ / ١٤٧٢ م) ^{٢٣} .

• علي بن محمد بن يونس **البياضي** ، نسبةً إلى قرية البياضة (ح : ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م) .

• محمد بن أحمد **الصهيوني** ، نسبةً إلى قرية صهيون (ح : ٨٦٩ هـ / ١٤٦٤ م) ^{٢٤} .

والأمثلة على ذلك كثيرة جداً ، لافائدة من سردها كلها . وفيما أوردناه كفاية للاستدلال على ما لاحظناه . وبالمقابل فإننا لم نعر على أي من ذيل اسمه بالعاملي في نص صدر في الفترة المذكورة .

الملاحظة الثانية : في حدود ما لاحظنا ونقّبنا ، فإن أول من ذيل اسمه بلقب " العاملي " هو

زين الدين بن علي الجبّاعي ، الأكثر شهرة بلقب " الشهيد الثاني " (ق : ٩٦٥ هـ / ١٥٧٧ م) . وذلك

في إجازته لتلميذه حسين بن عبد الصمد الجبّاعي ، المعروفة بـ " الإجازة الكبيرة " ^{٢٥} التي خطّها في

جمادى الآخرة ٩٤١ هـ / تشرين الثاني ١٥٣٤ م . ثم كرّر ذلك في إجازته لـ " المولى محمود بن

محمد اللاهجاني " . الصادرة عنه أيام إقامته في بعلبك بتاريخ رجب ٩٥٣ هـ / أيلول ١٥٤٦ م ^{٢٦} .

(راجع دراساتنا عن الشهيد في كتابنا « ستة فقهاء أبطال » / ١٣١ - ١٨٥) .

١٩ . « بحار الأنوار » : ١٠٧ / ٣٤ و ٤٥ و ١٤٠ .

٢٠ . نفسه : ١٠٨ / ٣٧ .

٢١ . أيضاً : ١٠٧ / ٢٠٣ .

٢٢ . أيضاً : ١٠٧ / ٢٠٣ .

٢٣ . أيضاً : ١٠٧ / ٢٠٥ .

٢٤ . أيضاً : ١٠٨ / ٣٩ .

٢٥ . أيضاً : ١٠٨ / ١٤٧ .

٢٦ . أيضاً : ١٠٨ / ١٧٢ .

لكنه من بعد درج في كل الإجازات الصادرة عنه على إثبات اسمه هكذا " زين الدين بن علي ابن أحمد الشامي العاملي " ^{٢٧} . والمزاوجة بين النسبتين معاً أمر نادر جداً، لانجده إلا عند ابن معصوم، علي بن أحمد المدني (ح : ١١٠٠ هـ / ١٦٨٨ م) في كتابه «سلافة العصر» ^{٢٨} . وهو هنا يترجم لعدد من المعارف العاملين . ذيل اسم كل منهم بـ " الشامي العاملي " . وذلك من ابن معصوم أمر مفهوم، لأنه صنّف كتابه في إيران، بعيداً عن الوطن الأصلي للمتّرجم لهم، حيث في التحديد بالعام فالخاص إفادة . خلافاً للشيخ زين الدين، الذي سطر جميع إجازاته في الشام، وأكثرها في جبل عامل، حيث النسبة لا تُفيد ميزة . ولا بد أن لهذا سبباً . لكننا لم نعر على ما يساعد على كشفه . . ولعله، إذ درج على إضافة " الشامي "، بعد أن كان يكتفي أول بـ " العاملي "، أراد أن يُخفّف من حدة هذه النسبة الأخيرة، في الجو المذهبي غير الودّي الذي اضطرب فيه، وهو الذي عاش تحت حكم الدولة العثمانيّة . باعتبار أن النسبة إلى جبل عامل ذات نكهة شيعيّة .

والغريب أنه إذ دأب على أن يُثبت لنفسه بإصرار لقب " العاملي " منذ جمادى الأولى ٩٤١، تاريخ إجازته لابن عبد الصمد، فإنه لم يجد به على بلديّه وتلميذه ورفيق أسفاره، ابن عبد الصمد نفسه . بل قال فيه " الجبّعي " . وذلك في إجازته نفسها التي سبق الإيماء إليها قبل قليل، وما ندري علّة ذلك أيضاً .

الملاحظة الثالثة : لم تلق بادرة الشهيد الثاني قبولاً وانتشاراً سريعاً . وذلك أمر له أسبابه طبعاً . أقلّها غياب الدواعي . فما ذلك الذي يدعو إنساناً يقيم في وطنه وبين مواطنيه إلى نسبة نفسه إلى الوطن حيث كل الناس في هذا سواء . لذلك فقد كان على " العاملي "، أعني اللقب، أن ينتظر ما لا يقلّ عن نصف القرن، قبل أن يصبح بالتدريج جزءاً من اسم كل الذين خرجوا من جبل عامل التاريخي الجغرافي، بالإضافة إلى مداه الحيوي الثقافي في سهل البقاع . ولن يبلغ غايته من الانتشار والقبول على ذلك النحو إلا في إيران . بعد أن انبعث الهجرة عارمة إليها، وغدت الوطن الجديد

٢٧ . أيضاً : ١٠٨ / ١٣٥ و ١٤٢ و ١٤٥ و ١٧٢ .

٢٨ . «سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر» ط . طهران، المكتبة المرتضوية لات . / ٣٠٢ -

لعمامة الفقهاء المهاجرين . ويمكن تتبّع تطوّر ذلك الانتشار والقبول بشكل دقيق ووافٍ في الإجازات الكثيرة الصادرة عن أو الممنوحة للمهاجرين ، خلال القرن الحادي عشر للهجرة / السادس عشر للميلاد، في الأجزاء ١٠٧ و ١٠٨ من «بحار الأنوار». حيث نلاحظ، مثلاً، أن أبناء الكرك، الكثيرين وذوي المكانة العالية، آثروا في البداية الانتساب إلى بلدهم . لما كان للقب " الكركي " من عز وأبهة . بفضل الصيت الكبير الذي اكتسبه عن جدارة واستحقاق بلديهم علي بن عبد العالي الكركي (ت : ٩٤٠ هـ / ١٥٣٢ م) (راجع دراستنا عنه في كتابنا «سته فقهاء أبطال» / ١١٠ - ١٣٠) لكن لم تأتِ نهايات القرن حتى بدا وكأن الجميع قد تسالموا على أن يكونوا " عاملين " .

٦- الشهيد الثاني ودوره في إحياء المفهوم الجديد

كل النصوص التي تعاملنا معها فيما فات تدلّ دلالة شبه قاطعة على أن الفضل في إحياء لقب "العالمي" ، نسبةً إلى جبل عامل ، يعود إلى الشهيد الثاني . بعد أن كان قد درس وعفا قروناً نسبةً إلى قبيلة عاملة . بحيث أن السّمعاني ، عبد الكريم بن محمد التميمي (ت : ٥٦٢ هـ / ١١٦٦ م) في كتابه «الأنساب» لم يجد سوى علمين اثنين يحملان النسبة ، ينسقهما في كتابه الضخم تحت مادة "عالمي" . أحدهما "ملك العرب في قديم الزمان" . والآخر مُحدّث دمشقي عاش في القرن الثالث للهجرة / التاسع للميلاد^{٢٩} . ولا لوم على السمعاني في هذا ولا تثريب ، فقد كان اللقب في زمانه ميمراً ، لا يعني شيئاً لأحد ، ولا يُعني صاحبه . وإن يكن السيد محسن الأمين (ت : ١٣٧١ هـ / ١٩٥٢ م) ، الذي يفوق السمعاني بكثير خبرةً بالموضوع ، قد أضاف عشرة أسماء ممن حملوا النسبة ، فبلغ بها اثني عشر . يتناثرون من اليمن إلى غرناطة ، ومن زمان الجاهليّة حتى القرن الثامن للهجرة / الرابع عشر للميلاد^{٣٠} . لكن هذه الإضافة لا تُغيّر شيئاً من الحُكم الذي قلناه ، ولا تُجدي نفعاً فيما قصد إليه السيد الأمين منها . لأن المنسوب إليه مختلف من زمان إلى زمان . فكأن أولئك الاثني عشر أشلاء تلك القبيلة اليمانيّة ، التي تشأمت في من تشأم من أبناء اليمن لكنها وقعت في خطأ قاتل حين وقفت مع الروم بوجه الانتشار الإسلامي منذ أول تلاحم في تبوك ، في السنة التاسعة للهجرة / ٦٣٠ للميلاد . فانهمزمت في من انهمزمت . وجلت عن مواطنها التي

٢٩ . «الأنساب» تحقيق محمد عوامة . ط . بيروت لات : ٨ / ٣٢٨ - ٢٩ .

٣٠ . «خطط جبل عامل» / ٥٢ - ٥٥ .

عمرتها في الأردن و الجليل ، لتضيع في آسية الصغرى مثلما ضاع غيرها . وما أولئك إلا آثار كالذي تتركه حركة سكانية كبرى ، حملت قوماً إلى أرض ، ثم حملتهم عنها .

والبصير بالظروف التي اضطرت فيها حياة الشهيد الثاني ، حين يتأمل في بادرته الذكيّة ، إذ عمد إلى إحياء ذلك اللقب البائد ، وإن بمعنى مختلف ، يرى فيه مفكراً يتمتع بروح قياديّة ، وبقدرة على ملامسة محرّكات الجمهور والضغط على الأزرار المناسبة . وتوسيع هذا الحكم الكبير يدعوننا إلى الإمام إماماً بسيرته . نختزلها من السيرة المُفصّلة التي علّقناها له في كتابنا « ستة فقهاء أبطال » . كان الشهيد الثاني في زمانه أعلى فقهاء الشيعة في الشام شأنًا . كما كان شيخ الحركة العلميّة التي تركّزت في أيامه في مسقط رأسه جباع . وهذه البلدة هي آخر نبضة للنهضة التي كانت قد بدأت قبل ما يقلّ قليلاً عن قرنين من الزمان . تركّزت فيها بعد أن ضعف شأن المراكز السابقة . ولكنه عاش عامة عمره في قلب الخوف والتهديد ، بسبب السياسة المذهبيّة العنيفة للدولة العثمانيّة . وسعى بكل ما ملكت يده إلى الحفاظ على سير الحياة العلميّة في وطنه . وعبر ذلك إلى تماسك الصيغة الثقافيّة الاجتماعيّة ، التي غدت الناظم للعلاقات فيه ، بوصفها مُعطىً من مُعطيات النهضة . لكن الحذر والتخفيّ ، وحتى الالتجاء إلى الحرم المكي ، لم يُنجياه من القتل على أيديهم صبراً ، بعد أن ساقوه إلى العاصمة إسلامبول . وكان قتله بمثابة النذير لإخوانه الفقهاء بأن ينجوا بأنفسهم . فانطلقوا هاربين بالعشرات صوب إيران الصفويّة . حيث قادوا جانباً أساسياً من نهضتها . بل ومنحوها الرابط الروحي الذي كانت تفتقر إليه ، والذي لا يزال يشدّ عُرُها حتى اليوم .

من غير العسير على التأمّل الحصيف ، أن يرى العلاقة المتينة بين ما ألمحنا إليه من ظرف سياسي ، اضطرب فيه الشهيد أيما اضطراب ، واضطرب فيه وطنه ، وبين عمله الإحيائي الرامي إلى استحضار نمط من الوعي الجمعي على الكيان والخصوصيّة ، اللذين بناهما وطنه لنفسه . وعاش عليهما حتى الآن ما يقلّ قليلاً عن قرنين من الزمان . وأسّس فيهما لمجده وحضوره . هكذا ، فعندما طفق الشيخ زين الدين يُضيف لقب " العاملي " إلى اسمه ، لم يكن يستحضر اسماً ميتاً رميمًا ، وبقعة من الأرض صادف أنه وُلد وعاش عليها ، بل كان يستحضر شخصيّة فكريّة وصيغة ثقافيّة اجتماعيّة . كان يُعبّر تعبيراً لا ينقصه الوضوح عن الانتماء الذي يُناسب وُجْدانه ، وعن تمسّكه به . وأيضاً ، وربما أولاً ، عن قلقه المُقيم على مصيره شخصيّةً وصيغةً وخصوصيّةً . بسبب التهديد الأساسي الذي حمّله الحُكّام العثمانيون الجُدُد ، الذين نظروا بكثير من الضيق الصريح وعدم الرضى

إلى الصيغة الثقافية الإجتماعية التي كانت قائمة فيه . وأيضاً ، وربما بالدرجة الأولى ، إلى ما كان يتمتع به من كيانية ثقافية واستقلال وتوهج فكري .

٧- خلاصة الفصل

نخلص من هذا التتبع للمسمى " جبل عامل " والاسم منه " عاملي " ، إلى أن المسمى والاسم كليهما لم يكن يعني المؤدى نفسه . وأن المسمى اتخذ أثناء سحابة مايزيد على العشرة قرون ثلاثة معاني :

الأول : جغرافي أقوامي . مركّب من المَعْلَم الجغرافي ، الذي قلنا إنه هو " الجليل " نفسه واسم القبيلة اليمانية التي نزلته ، أعني عاملة . هذه التسمية فقدت مقتضياتها بالتغيرات السكانية الكبرى التي نشأت عن الانتشار الإسلامي . لكنّها ، شأن أسماء البقاع ، لم تُسَخَّ من الاستعمال فوراً ، أي بمجرد زوال مقتضياتها ، بل ظلّت متداولة حتى النصف الأول من القرن السابع للهجرة / الثالث عشر للميلاد على الأقل .

الثاني : إداري سلطوي . نشأ من قسمة الدولة المملوكية شمال الجليل قسمة إدارية إلى أعمال . وذلك في أواخر القرن السابع / الثالث عشر . والظاهر أن عمل جبل عامل انحصر بهذه القسمة فيما هو اليوم قضاء النبطية وجزء من قضاء صور .

الثالث : مدرسي ثقافي . نشأ وذاع بفضل الكيانية الثقافية التي اكتسبها الجبل . وكان من الطبيعي أن يتطور بتطور حضوره الثقافي الفكري . وعبر هذا التطور عن نفسه بمنح لقب " عاملي " لكل الذين عاشوا أو خرجوا أو خرج أسلافهم من الجبل ، وأيضاً من مداه الحيوي الثقافي . من الذين حملوا ثمرات النهضة التي نبتت في أرضه إلى مختلف الأقطار .

في الطور الأول من الاسم ، الموازي للأول من المسمى ، كانت النسبة إلى القبيلة حصراً . وفي الثاني ، فإننا نلاحظ أن النسبة " عاملي " بأي معنى قد غابت غياباً شبه كلي . لتعود إلى الانبعاث بقوة ، وإن بالتدرج ، في الطور الثالث . حاملة معنى جديداً يُعبّر عن الحضور الثقافي الفكري .

هذا الأخير هو المعنى الذي يدور عليه البحث .